عن بائع الحلب

منال مقداد

في غزّة كم مرّة علينا أن نموتَ لتقتنعَ الحياةُ بجدارتِنا بها؟ وكم معجزةً تلزمُنا لندافعَ عن أحلامِنا وكرامتِنا؟

أيُّ قلوبٍ تلكَ التي يجبُ أنْ نحملَها حتّى لا نصرخ ونبكي -نحنُ الكبار- أمامَ صغارِنا؟ وأيّ قدرةٍ عجيبةٍ أو موهبةٍ عليها أن تُولَدَ معنا؛ لنحوِّلَ صوتَ الصواريخِ والقذائفِ والطائراتِ إلى موسيقى، نطربُ بسقوطِها المفاجئ على آذانِنا أو نرقصُ ونزفُّ شهداءنا على إيقاعها؟

في غزة...

عليكَ أن تكونَ بارعاً في نسجِ الحكايا، لطالما صغارُها يكبرون فجأة، وعليكَ أيضاً أن تكون سريعاً مفاجئاً كالصّاروخ، تقنعُهم بالحياةِ رغمَ أنَّ الموتَ يوشّح أرواحَهم.

أنا بخيرٍ تماماً، حاولتُ النّوم مراراً عندما عبّأ الهدوءُ سماءَ المدينة، ولكنّه ما زال ضيفاً خفيفَ الظّل، يغادرُنا مسرعاً؛ لتشنَّ الطائرات غاراتٍ جديدة.

كل ما في الأمر أنّي لا زلتُ أدرّبُ روحيَ على تقبُّلِ هذا الضجيج، وقلبي على مزيدٍ من التّماسكِ والقوة.

حلويات تسمى كرابيج حلب

ولأن غزة مصابةٌ، وعاجزة أن تنام، من حقِّها علينا أن نحرسَها وندللها حتى تتعافى من وجعها.

لا تقلقوا أبداً...

غزّة ما زالت قادرةً على الغناء حين تودّع شهداءها، غزّة ما زالت تفتح ذراعيها لتستقبل أبناءها شهداءَ وتغطيهم بترابها، غزة ما زالت بخير !

الوضع أسوأ مما تتخيلون، الأمر لا علاقة له بالشّجاعة والصّمود من عدمِها، الليلة الماضية كانت الأعنف منذ بداية الحرب أو العدوان على غزة، هذه المرة لم أبكِ -كعادتي- الصّوت المتواصل العنيف الذي سمعتُه ربّما منعني من أية ردة فعل.

في الصّباح بعد آخر هجومٍ نفّذته الطائرات على المدينة، استجمعتُ قوايَ وبدأتُ عمليةَ جمعٍ لممتلكاتي الخاصة، من أوراق ثبوتية، شهادات مدرسية وجامعية، دروع تكريم، هدايا، ما تبقى من رسائل كنتُ قد تلقّيتها من عمي داخل السجون الإسرائيلية، هاتفي المحمول، اللابتوب وغيرها.

نظرتُ مطولاً إلى مكتبتي الخاصة، لابدّ أن أحتفظ بأقل عددٍ ممكن منها؛ لأنه ليس من السّهل حمل كل هذه الكتب وقت الهروب، قررّت فرز الكتب التي تحملُ توقيعاً خاصاً من كاتبها. أحسستُ بغصةٍ لا أريد أن أفقدَ مكتبتي للمرة الثانية كما في الحرب الأولى.

للحظةٍ أخرى أحسستُ بالقهر يكاد يقتلني، ما هي كل هذه التفاصيل التي تشغلني وربّما لن أقدر على الاحتفاظ بها عندما يكون الموت أسرع منها إليّ؟

ولطالما الموت سيأتي مباغتاً سريعاً دونَ اتفاقٍ بيننا، سأذهبُ معه مجرّدة، بلا ذاكرة أو أوراق أو كتب أو أحبة أو أصدقاء أو هدايا أو أحلام. سأذهب معه وحيدةً خفيفة...

هامش:

أصدقائي اللي استعاروا كتب مني، لما أموت مسامحتكم فيها، بس كمان ديروا بالكم كتير عليها، وابن عمي مكتبتي إن سلمت وما صارت ملك للحرب فهي الك.

أكلّمُ الله كثيراً، وغـزّة!

هنا... تفتحُ صفحةُ السّماءِ قلبَها إلى النّور، بعد ليلٍ قد امتلأَ بالقذائفِ والخوفِ والصُّراخ، فكيفَ نقولُ صباحُكِ خيرٌ يا غزة؟!

ملءُ الأملِ أقول: لعلّه صباحُ خيرٍ يا غزّتي؛ بعدَ أن وشّحَت الجراحُ وجهَكِ، وأصابَ قدميكِ التّعب، لعلّه كذلكَ بعد أن سلبَ القتلُ حقّكِ في الحياةِ والغناء، لعلّه كذلك.

[يا غزّة لوّني سماءَ ليلِكِ بوجوه الأطفال والشهداء، ولتملئين حنجرتَكِ بالصّلاة، وروحَكِ بالسكينة.]

فيما طائراتُ الاستطلاعِ تأكلُ رأسَك؛ تمرُّ قذيفةٌ ربّما تُسقِطُكَ بعد أنْ ملأ روحَك الانهيار. تنكسرُ، تصرخُ، تبكي بجنونٍ، وثمّة أغنيةٌ ثوريّة تقطعُ صراخَكَ، تملؤكَ بالحماسِ والصّمود فتهدهدَك.

[يا غزّة هل تميتينَ خوفَك بالأغنيات؟ وهل تعطينا نحنُ -نصفُ الأموات- الحياة؟]

القذيفةُ التي أخافتَكَ أو لم تُخِفكَ، قـتَلَـتْ أحداً من أصدقائِكَ أو جيرانِكَ أو أقاربِك، وأصابتِ الكثيرين؛ تركَتَ فيكَ مشاهدَ الدّمِ والأجسادَ المتناثرة، بؤسَ عائلاتِهِم، اختناقَ أرواحِهم، بكاءهم، وعجزاً كبيراً تكلِّم فيه الله والمدينة وتستعجلُ الخلاص.

[يا الله... الطّفلُة التي صارت فراشةً وذهبت إلى السّماء، كم عليها أن تنتظرَ لتختبئ في حضنِ أمّها؟ كيف سيصبرُ الطّفل الذي قبّل عائلته وغابت في أطراف الغيم؟]

فيما صدريَ مكتظٌّ بالاختناق؛ أملأُ أرواحَ الأصدقاء بالحياةِ. أحيكُ من قلقِهم ستائر، ألوّنُ فيها شحوبَهم. هذا الوجعُ يقتلعُ شيئاً من قلق الرّوح. وفي حضرتِه، تدنو ساعةُ الأجل ولا ذاكرةَ سوى الطّرقاتِ الباهتة، وصفيرِ الموتِ حينَ يعلو في صدري!

[يا الله... هل تصلُكَ رسائلي؟ هل تسمعُ صوتَ بكائي المختنق؟ هل تدركُ ضعفيَ وقلّةَ حيلتي؟ يا الله لماذا لا تصدّقني حين أتوسّلُ إليك: لا أريد الحرب ولا أريد لحياتيَ أن تنتهي؟!]

صباحاً لا يوقِظُكَ صوتُ بائعِ الكعك، أو بائعِ السردين. غابتْ أصواتُهم لأنّهم ظنّوا أنّ منازلَهم ستحميهِم من استهدافِ الطّائراتِ الحربيّةِ الإسرائيلية، لم يكونوا يعلمون أنّ بيوتَهم هي الهدفُ الأساسيّ لهذه الحرب.

صباحاً يوقِظُكَ صوتُ صاروخ طائرات F١٦، وهو يسقطُ على منزلٍ، أو مسجدٍ، أو أرضٍ فارغةٍ، أو مستشفى، أو مبنى حكومي بالقرب من بيتكَ فيدمره. أو ربّما يكونُ بعيداً عنه، ولكنّ صوتَه يملأ الفضاء فتسمعه.

في هذه اليقظةِ القلقة، تكونُ قد هيّأتَ نفسَكَ للهروبِ من منزلك، أو قد تستقبل الموتَ فجأةً؛ ببساطة لأن القذيفة أحبّتْ أنْ تعانقَك. وقتٌ طويلٌ من الخوفِ والقلقِ والتّرقبِ لاحتمالاتٍ مفتوحةٍ لما سيكون خلال الدقائقِ أو السّاعاتِ القادمة. وحين يختفي صوتُ القذائفِ والصّواريخ من سماءِ الحي الذي تسكنه لتتّجه إلى حيٍّ آخر لتنفذّ ذات الغارات، تظلُّ طائراتُ الاستطلاع تحلّقَ حتّى تنزعَ الطّمأنينةَ من قلبِك. تحاولُ أن تنسى وجودها؛ فتنشغلَ بترتيب البيتِ وتنظيفه، ربّما من آثار الغبار الذي تطايرَ جراء القصفِ الغريب، أو لأنّك قرّرتَ أن تتركَ نوافذَ بيتِكَ مفتوحةً صباح مساء خوفاً من صاروخٍ قريبٍ قد ينفجر، فيسقطُ زجاجُ النّوافذ ويسبب لأحدكم الأذى.

لا موسيقى هادئةً ترافقُ انشغالَك، أو أغنيةً يسهُلُ على قلبِكَ أن تدندَنها؛ لأنه لا قدرةَ لديكَ أن

تخلطَ الجمالَ بالقبح، والسّلامَ بالحرب. لأنّه لا قدرةَ لديكَ إلا أن تستذكرَ صرخاتِ الثّكالى، ودموعِ النّاجين، وهلعِ الصّغار، وجثثِ الشّهداء، والمنازلِ التي أصبحت ركاماً وابتلعت كلَّ ذكرى مع غيابها.

كلُّ شيءٍ على ما يرام، البيت الآن أصبحَ وكأنّه على استعدادٍ لاستقبالِ أحبّ الأصدقاءِ على قلوبِنا. الشّارعُ خالٍ تماماً إلا من بعض المارة الذين قد خرجوا من بيوتهم لجلبِ بعضِ حاجياتهم الضّرورية. أحدُهم يخرجُ من السوبر ماركت يحمل مواداً غذائية، وآخر يحمل علبة حليبٍ للأطفال وربما أدوية، شابٌ يبيع السجائر أمام باب منزله قد رسمَ الحزن ملامحَ وجهِه.

متى سينتهي كلُّ هذا البؤس يا الله؟ هل ستنتهي الحربُ ونحن لا زلنا نمارسُ الحياة؟ أم أن الموت سيختطفنا جميعاً ويميتُ كلّ أحلامنا؟

بائعُ الحلب لم يمر، كان جميلاً صوتُه حين يردد مغنياً: "وصل بيّاع الحلب، وصل يا حبايب.. وصل بياع الحلب، حلب يا حبايب" - هوسٌ ما قد أصابني؛ أريدُ أن أرى كلّ الوجوهِ التي رأيتُها طوالَ حياتي في غزة، الآن وهي على قيدِ الحياة، حتى أولئك الذين لا أعرفهم - ربّما يكون الآن مع أبنائه يروي لهم القصصَ حتى يشغلَهم عن الحربِ قليلاً، أو ربّما يبيعُ الحلوى في منزلِه للجيران، ولكن من سيأكلُ الحلوى في هذه الأوقات؟ ومن سيخاطرُ بالخروجِ لإحضار حاجياتٍ يمكن الاستغناء عنها؟!.

لا بدّ أن أتواصلَ مع أصدقائي وأقاربي خارجَ غزة، أحدثهم وأطمئنهم، سأقول لهم أننا بخير، حينها سيظنون أن الأمور عادية، وهم لا يعلمون بتاتاً أنني أعني أننا هربنا من فك الموت هذه المرة ولا زلنا أحياء. أستجمعُ قواي والدموعُ تملأ عينيّ والخوف يعبّئُ روحي، أكتب ما أكتب حتّى أطمئنهم، أتصفّحُ المواقعَ الإخبارية ,أبحث جاهدةً عن آخرِ الأخبارِ عن الحرب؛ عددِ الشّهداء يرتفع وكذلك المصابين، تدميرِ عدد كبير من المنازل والمنشآت، أترقبُّ خبراً ما يقول: سيتم إنهاء الحرب على غزة... ولكن بلا فائدة.

على الأرجحِ أن عددَ ساعاتِ اليومِ قد تضاعف، أو أنّ النّهار يبدو لي طويلاً جداً. لا بدّ لي من غفوةٍ أنالُ فيها قسطاً من الراحة. أتوجّه نحو سريري، أسدل الستائر خوفاً من دخول الشظايا عبر نافذة غرفتي وتقطيع جسدي إلى أشلاء، أغمض عينيّ لأجدني قد احتميت بجسد ابن أخي الصغير بعد أن سقط صاروخٌ لا أدري مكانه وهربت.

أشعل الراديو لأستمع إلى آخر التطورات، تنقطع الكهرباء، وننقطع عن العالم، ووحدنا نحن وأصوات الصواريخ والقذائف وأفكارنا المؤلمة التي لا تنقطع!

لأنّي نسيت

شكلَ السّماء، رائحة الورد، لون الرّصيف، دفءَ الشّارع، ملامحَ غرفتي، سطوةَ النّوم، حدائقَ النّشيد، عبثَ الصّغار، طعمَ المزاح، وجوهَ المدينة، صوتَ الهدوء

متى ستنتهي هذه الحرب؟

في لحظات القصف القريب من منزلك، أقصى ما يمكن أن تفعلَه أن تهرب بأقصى سرعةٍ إلى المكانِ الذي قد تمَّ الاتفاقُ عليه في اللحظات الأولى للحرب أنّه الأكثر أماناً.

صوتُ انفجارٍ قويٍّ لصاروخين تمَّ إطلاقهما من طائرة F١٦ زلزلَ الحيَّ بأكملِه، هذه اللحظة كافيةٌ لأن تُذكّرَكَ بأنانيتِكَ المفرطة، وانحيازِكَ لحياتِكَ ثم الآخرين. أولّ ما تفعلُه أن تهربَ وتحاولَ أن تحميَ نفسَك، ومن ذاتِ المكانِ تبدأ بالنّداءِ على مَنْ تبقّى من أهلِ بيتِكَ ممن لا يتواجدون في هذه النقطةِ المتّفق عليها.

بعدما تبيّنَ أن القصفَ كان لمنزلٍ في الشّارع المجاور، وتمَّ تدميرَه بالكامل، تبيّنَ أيضاً أنَّ جميعَ المصابين والشهداء في البيتِ المجاور له.

ماتتْ معلمتي – معلمة اللغة العربية- في الصّف الرابع الابتدائي، هذا ما أكّده حتى اللحظة المتواجدونَ في المكان والذي تناقله أهل الحي حتّى وصلنا الخبر. هذه المعلمة التي امتازت بالحزمِ والذّكاءِ والمرح، كانت تنادي جميع طالباتها في الفصل "يا إمي". رحلت أمُّ الأجيال المتعاقبة، وتركتنا نعيدُ ذكرياتها معنا. لن أنسى ما قالته لي حين أمسكت يدي لما أجهشتُ بالبكاء حين بدأنا تعلّم خط الرّقعة، قائلة: "اللي بيكون خطه جميل بالنسخ، رح يكون جميل بالرقعة"

يا الله لو أنّي تذكّرت فقط أن أملأ حنجرتي بالدّعاء لهؤلاء المستهدفين والقريبين، ربّما لنجت من الموتِ معلمتي!

الأمان في غزة، هو أن تبحثَ عن المكان الأكثر أماناً في المكان الخطر!

يسكنُ أخي شقّته المجاورة لشقتنا من الناحية الشرقية في نفس العمارة السّكنية. منذ أن بدأت الحرب يجتمعُ أخي وزوجتُه وأطفالُه الثّلاثة في الغرفةِ التي لا تطلُّ على الشّوارع الرّئيسية أو بكلماتٍ أخرى الغرفة الأكثر أماناً في بيته. ابنهُ الأكبر في عمرِ السّت سنوات - وهو الحفيد الأول للعائلة- أذكر تماماً قبل تاريخ عيد ميلاده بشهرٍ كاملٍ كنا نرتب لحفلةٍ كبيرة، ولسوء حظ هذا الطفل، أكملَ عامَه الأوّل في الحربِ الأولى عام ٢٠٠٩، ما يعني أن ياسر ابن السّت أعوام عاش حتى اللحظة ثلاثةَ حروب. كنّا نعزّي أنفسنا بأنه ما زال صغيراً، ولن يتذكّرَ كلَّ هذا الفرح والحب وهو في السّنة الأولى من حياتِه ولكن ثمة غصةً تحرق قلوبنا.

تسعُ ثوانٍ من المشي المتأني فقط ليكونوا في ضيافتِنا، ولكنّ هذه المسافةِ الصّغيرة لم تسمحُ لهؤلاء الصغار أن يطلوا علينا كل نصف ساعة كما اعتدنا منهم. - بصراحة - أفتقد بشدة الآن كل الضّوضاء التي كانوا يصنعونها بمجرّد دخولهم البيت، أفتقد أسئلتَهم التي كثيراً لا تجدُ إجابةً عليها، أفتقد كيف كان يستفزّني ياسر حين يلقي أوامره علي بضرورة مساعدته في إنجاز رسوماته يومياً وتلوينها، أفتقد كل هذا الضجيج.

ساعتان من بعد الغروب والهدوء يعمُّ المنطقة التي نسكنها، يتّصل أبي بزوجة أخي لتنضمَّ إلينا مع أطفالها وزوجها قليلاً ونجتمعَ في هذا الليل حول كأس شاي، يركض الأطفال وكأنّ دهراً مرَّ دون أن نراهم. يبدأون باللعب وملء أركان البيت بالصراخ. حين نادى أبي الصغار أن يجلسوا بجانبه ويهدأوا قليلاً ليشربوا الشاي، عبود قال متردداً وبصوتٍ خجول: ما بدي أشرب شاي. تبادلنا النظرات وفهمنا مقصده، فقد يبول ليلاً من الخوف حين يسمع صوت القصف. أكمل عبود بذكاء: الدنيا شوب، وأنا جاي على بالي بوظة، سيدو مش انتَ بتحبنا؟ جيبلنا بوظة من السوبر ماركت. همَّ أبي بالخروج وبدأتُ بحواره حتى يعدلَ عن أمرِه ويظلَّ في البيت، لا أمان لطائرات الاحتلال الصهيوني، وكالعادة اختتم نقاشنا الطويل بكلمته التي صرت أحفظها عن ظهر قلب – اللي اله عمر ما بتهينوا شدة- التزمت الصمت.

خرج أبي وأنا أراقب خطواته عبر النافذة وأدعو الله أن يسلّمَه ويبعدَ الطائرات عنه. ناديتُ عليه وردّد الصّدى معي ممزوجاً بصوت الطائراتِ الحربيّة: بابا اسرع، بلا ما يصير قصف. ابتسم أبي، وللحظة خلته سيعيد نفس جملته الذي يختم بها خوفيَ من الحرب.

قبل عودة أبي، وجه ياسر –ابن أخي- كلامه لي مستنكراً: مش أنتِ قبل يومين قلتي جاي عبالك بوظة؟ ليش بتقولي لسيدو ما يروح؟ ولا ما بدك ناكل معك؟ أجبتُه: بس مشان الحرب يا عمتو، بعدين إذا صار لسيدو شو نعمل؟ أجابني وكلّه ثقة: اليهود ما رح يقصفوه، لأنهم بيصوروا من الطيارات، ورح يعرفوا إنه رايح عالسوبر ماركت مش رايح يقتلهم. أجبته: لأ بيقتلوا، لأنه قتلوا كتير أطفال، بدون ما يعملوا شي، كانوا متخبيين ببيتوهم، ذهب إلى أمّه صارخاً: يعني بتكزبي علينا؟ يعني اليهود رح يموتونا كلنا.

استدركت أمي الموقف وأجابته: عمتو بتمزح معك، بس بدها تخوفك، فأجبته وكلي غضب: ما بمزح: اليهود بيقتلونا بلا سبب. وفي هذه اللحظة فتح أبي الباب، وركض الصغار نحوه يقبلوه، وقال عبود الصغير: تصدق يا سيدو إني زمان ما أكلت شوكو، والله بحبك.

وأنا أتابعُ ابتساماتهم بهذه الأشياء الصغيرة، شعرت بالنّدم لأنني ربما أخفت الصغار، ولكن لا بدّ لهم أن يعرفوا الحقيقة دون تجميل ولكن كان عليّ أن أكون أكثر لطفاً معهم. كلّهم يشربون الشاي ويتناولون

البسكويت ويتجاذبون أطراف الحديث، وأنا أفكر حتى تقذف طائرة الـ F١٦ بإحدى صواريخها على منزل في الشارع المجاور، نهرب لنجلس في ممر البيت وهو المكان الأكثر أماناً بعد أن أغلقنا باب المطبخ المواجه للشارع الثاني. الممر هو المكان الأكثر أماناً في هذا الخطر الذي يحدّقُ بنا في هذه اللحظات. ٣*١,٥ امتاراً مربعةَ، كانت مساحةً كافيةً لأن تحميَ أحد عشرَ شخصاً من شظايا الصواريخ القاتلة.

كيف يفلت منك الصباح في غزة؟

بعد ليلة حجبت فيها الطائرات الحربية، ال F١٦، والاستطلاع نجوم السماء التي تزين وحدتنا في المساء، صوبت فيها صواريخها القاتلة إلى أحلام الصغار وبراءتهم.

بعد ليلة ظل بحرها يصرخ عله ينقذ شاطئه من الوجع الذي أصابه حين أمست الزوارق الحربية تدكه حتى مطلع الصباح؛ صار يبكي لما اتهمه أبناؤه وظنوا أنه قد خطف حياتهم وأرواحهم.

بعد ليلة كانت قد منحت لكل عين في كل بيت قذيفة دبابة، كانت قد اختارت أن تنهي حياة من زال يغني ويؤمن بالوطن والانتصار.

هكذا قد يطلع الصباح هادئا؛ وفيما أنت تكون قد سقطت حين أنهكك التعب حتى غالبك النوم، تكون قد فقدت صباح المدينة الثكلى.

أو ربما تقتنص ليلا هادئا، فتمارس فيه عادة النوم التي كنت قد تعودت عليها قبل بدء الحرب. لست الآن بحاجة لمنبه حتى تستيقظ باكرا إلى عملك - فالحياة معطلة الآن - حتى ترسم نوما طويلا، يعوض نقصا اجتاح جسدك منذ أيام.

وفيما أنت تسلم جسدك للنوم بعد أن أنهكه التعب، تصحو على صباح تنبهك فيه أصوات الموت الذي يحيط بك، وينتظرك، حتى تظل مختبئا دون أن تملك الشجاعة لتمد نظرك إلى الخارج، وحتى إن كان هناك شجاع؛ فلن ينتبه للصباح في هذه المدينة الدامية.

تعلموا...

هكذا تفلت الصباحات من روحك دون أن تنتبه!

لن يعتني أحدٌ بقلوبِنا الجريحة، ولن يمسحوا الصّراخَ عن أعمارِنا.

هذا الصّباح

سنبتلعُ حزنَنا

لينطفئَ الجميع!

أن تصحوَ من النّوم بعد محاولاتٍ لإقناع نفسِكَ أنّك ما زلتَ بخير، وتحملُ من القوّةِ ما لم يحملُه مَنْ لم لا يقعوا تحتَ الحرب، حتّى قضيتُ عدداً لا بأسَ بهِ من ساعاتِ الليل في البحثِ عن طرقٍ لتغييرِ الجوِّ العام في البيت.

كنتُ قد قرّرتُ اليومَ تحديداً أن أعدَّ فناجين القهوة التي اعتدنا على شربها قبل الحرب لنشربها سوياً، وأن أجهزَّ كوباً من الحليبِ لجدتي التي نزحت إلى بيتِنا خوفاً من القصف في شمالِ قطاع غزة. قرّرتُ أن أصنعَ وجبةَ الغداء بنفسي اليوم وندعو عائلة أخي لمشاركتنا - بعدَ أنْ أعلنتُ طوالَ الحرب أن لا علاقة لي في تجهيز الطعام - كنتُ قد قرّرتُ أن أجمعَ الصّغارَ لنلهو بالبالوناتِ قليلاً، وأن أكون أطولَ بالاً وأنا أرسمُ مع الصغار أحلامهم. سأختبر هذه القوّة والفرحة التي اصطنعتها لربما تسمحُ لي بالنزول إلى السوبر ماركت.

صباحاً فتحتُ باب غرفتي مبتسمةً، توجّهتُ إلى غرفة الجلوس، وبصوتٍ مليءٍ بالفرحِ قلت: صباحُ الخير، لم أجدْ رداً غير دموع أمي وابي، انسحبتُ وأكاد أحس قلبي يتوقف دونَ أن أسألهما ما الذي جرى؟! هل استشهدَ أحدٌ من أقاربِنا؟ اتجهتُ مسرعةً لأقطع على رأسي كل هذه الأفكار متسائلة: مين مات؟ أجابَ أبي: خال زوجة أخيكِ.

ما الذي يمكن أن أفعله الآن؟ كيف سنقنعها أن تتحلى بالصبر؟ ماذا يمكن أن افعل حين سأواجه خبراً كهذا؟ فقط سأصرخ في وجهِ كل مَنْ يُسمعني كلمةَ عزاءٍ واحدة. قطَعتْ أمّي كل هذه الأفكار لتقول: بعدها ما بتعرف إنو خالها استشهد.

ها هي دوامة الأفكار تعودُ من جديد، ما يعني أنني سأشهدُ ردّة فعلها الأولى حين تعلمُ بخبر الاستشهاد، اتّصلتُ بأخي كي أخبره الأمر وعليه أخذ كل الاحتياطات لمنعها من التواصل مع أحد اليوم أو سماع نشرات الأخبار، وإذ بها تجيب هاتفه لتخبرني أنه نائم، وفي قمّة ارتباكي سألتني: في اشي مهم؟ أجبتها: لأ، بس كنت بدي أقولك إنو اليوم غداكم عنا، ما تطبخي. ضحكت وأقفلت الهاتف.

يا للمصيبة... ماذا علينا أن نفعل؟ كيف يمكن أن نعطل هاتفها والراديو؟ كيف يمكننا أن نمنعها من سماع الأخبار اليوم؟

بعد دقائق قصيرة، تأتي حاملةً ابنها الأصغر، تبتسم لنا، قائلة: صباح الخير، خالي دانيال استشهد !

بأيِّ يدٍ من دفءٍ وأمومةٍ سنكفكفُ دموعَ الطّفلةِ ذاتِ الملامح التي تشبّعت بالحزن والقهرِ وعمراً يكبُرها بنصفِ قرن؟ الطّفلة التي استوقفتني اليومَ؛ وبعد أن قلتُ لها: "خلصت الحرب حبيبتي، وكل شي رح يرجع أحسن من أوّل" في محاولتي الفاشلةِ لأطمئنتها أو رسمِ ابتسامةٍ على وجهِها. أجابت: " ودارنا مين بدو يرجعها؟ أمي وأخوي صاروا عند الله، والله ما برجع حدا. احنا تعبانين!"